

الذهنية الجزائرية

أحمد مولاي
أستاذ مساعد
كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية .
قسم اللغة العربية - فرع الفنون
جامعة : د / الطاهر مولاي - سعيدة
البريد الإلكتروني : sceno@voila.fr

ترتبط الذهنية بمفهوم الهوية ارتباطا وثيقا، كما ترتبط بشكل مباشر بسلوك الفرد أو الجماعة وكذا بأفعاله وردود أفعاله، وبذلك تكون بمثابة المحصلة التي يستند إليها الفرد في تشكيل تصوّره للعالم، بما يختزله هذا العنصر ويستمدّه من مجمل العناصر الأخرى المشكلة لهوية الفرد، وللحديث عن الذهنية الجزائرية لابد أن نشير إلى العنصر البشري الذي استوطن منطقة شمال إفريقيا منذ غابر العصور، فهذه التشكيلة البربرية اندمجت فيها العديد من الأجناس على مرّ العصور إلى أن كان في نهاية المطاف هذا التمازج البربري العربي، غير أننا نشير هنا إلى أن هذا الاختلاط ما بين الأجناس لم يشكل في أية فترة من الفترات مشكلا أو عائقا أمام تواصل الأفراد فيما بينهم، أو مشكلا هوياتيا على مستوى المجموعات، بل ذاب أفراد الجماعة في بوتقة واحدة مشكلين بذلك أمة واحدة، ذلك ما يؤكده المنصف وناس في سياق حديثه عن المجتمع التونسي بقوله: "فالمجتمع التونسي على سبيل المثال، يتسم بالاستقرار الاجتماعي وبالتجانس العرقي على الرغم من أنه عرف تنوعا نسبيا في مكوناته البشرية التي جمعت بين القرطاجين والرومان والوندال والأندلسيين والأتراك والأجانب من الفرنسيين والإيطاليين والمالطيين"¹، وهو ما يمكن أن نسحبه على الجزائر باعتبار أنّ القطرين الجارين قد عاشا نفس الظروف التاريخية والاجتماعية منذ الأزل، ويؤكد ذلك بقوله أيضا: "...فعلى الرغم من كل الاحتلالات الخارجية والتوترات والظروف الصعبة فإن بلاد إفريقيا

¹ المنصف وناس، الشخصية التونسية محاولة في فهم الشخصية العربية، تونس، الدار المتوسطة للنشر، 2011، ص: 31

الشمالية حافظت على وحدتها وتجانسها وشكلت تدريجيا ضربا من النفسية المشتركة ونوعا من الوعي الجماعي المبني-جزئيا أو كليا- على الانتماء العرقي"¹.

بهذا نكون قد أشرنا إلى طبيعة التشكيلة السكانية والبشرية وإلى إمكانية توحيدها، في إطار جماعة واحدة بإمكانها أن تؤسس لهوية موحدة، مما ينتج ضربا من النفسية المشتركة والسمات العامة التي يمكن أن ينخرط فيها أفراد هذه الجماعة وهذه الأمة، وعليه يمكننا أن نتحدث بداية عن ملامح هذه الأخلاق العامة التي تخلق بها البربر، فبالإضافة إلى ما ذكره ابن خلدون من أخلاق البربر (عزّ الجوار وحماية النزول ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات في الشدائد وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبرّ الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم، وقرى الضيف والإعانة على النوائب وعلو الهمة وإبائة الضيم ومشاقّة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينهم...)، فما هو سليمان عشارتي يشير إلى خصلة أخرى متأصلة في شخصية هذا الشعب ألى وهي تحمّل المسؤولية تامة من خلال قوله: "لقد كان من عرفهم أن يواجهوا الهزيمة بالانتحار، وهذا ما رأينا يوغرطة يقوم به ويتوجّ به حياة حافلة بالمقاومة والتحدي في الأسر، فما كان منه إلا أن ألقى بنفسه من شفير سحيق.

لقد استقتلت الكاهنة وكانت على بيّنة من النهاية، لذا سبقت الأحداث واتخذت قرار الانتحار الجماعي على ذلك النحو الذي كان من سنن البربر في مضمار الحرب، قرار كان ينسجم مع طويّة ملكة رأت وجودها القومي يواجه مصيرا لا قبل لها به"².

قد يرى البعض في الانتحار هروبا وضعفا وجبنا، وقد يصدق ذلك إذا حدث هذا الانتحار قبيل أو في بداية المعركة، ولكن والانتحار يأتي بعد استنفاد جميع وسائل المقاومة وأسباب النصر، تكون هذه العملية من أخلاق البطل الشريف الذي يتحمل مسؤولية فشله في المعركة وفق العرف البربري، وحفاظا على شرفه من المهانة

¹ - م ن، ص: 35

² - سليمان عشارتي، الشخصية الجزائرية الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007 ص: 72

والإذلال في سجون العدو، وكنتيجة منطقية تظهر ملامح قيمة الشرف والعزة المتأصلة في النفس البربرية التي تُقدم وتقبل الموت على التفريط في هذه القيم. هذه السمات الأخيرة التي يؤكدّها عشراتي في سياق حديثه عن القرار الذي اتخذته الكاهنة في معركتها الأخيرة في مواجهة الجيوش الفاتحة، والتي انتحرت على إثرها عملا بأعراف قومها، حيث يقول: "أم تراه خيارا سديدا أملتّه الشروط غير المتكافئة بين الطرفين الأمر الذي حثّم على الكاهنة أن تصمد وتترقب مصيرها، بصفتها ملكة ولها أعراف في التآبي واللاتراجع، وتجعل في ذات الوقت رعيّتها في حلّ من متابعة القتال"¹.

إذا فتأكيدا لقيمتي الشرف والعزة المشار إليهما يؤكدهما عشراتي بقيمتي التآبي واللاتراجع وهاتين القيمتين تتبعان من قيمة الشرف في سياق الحرب والمقارعة. إنّ هذه السمات المتجذرة في الشخصية البربرية عامة والشخصية الجزائرية على وجه الخصوص، يدعمها قول الملي في حديثه عن الأمة الجزائرية بقوله: "ولم تزل هذه الأمة النشيطة الحربية-قبل الإسلام وبعده- تقف في وجوه الهاجمين وتثور على الظلمة المستبدين وتنهض للتخلص من وطأة الأجنبي على حريّتها وإزاحة كابوس المستعمرين عن مقلتي حياتها"².

إنّ هذا النص وإن أكد الروح العامة للشخصية الجزائرية والسمات التي سبق ذكرها، إلا أنه يشير إلى قيمة أخرى يقدمها البربري عامة والجزائري على وجه الخصوص، إنها قيمة الحرية، لذا يقال أنّ معنى كلمة الرجل الأمازيغي هو الرجل الحرّ، وسنرى لاحقا بأنّ هذه القيمة المتأصلة في الشخصية البربرية والجزائرية كان لها آثار على صعيد التنظيم الاجتماعي وتعامل أفراد المجتمع مع أي سلطة مركزية تقوم على هذه الأرض عبر التاريخ.

وفي سياق ذلك يشير المنصف وناس واصفا طبيعة هذه الشخصية البربرية بقوله: "فما استطعنا استنتاجه من خلال الاعتماد على دراسات موثقة للمجتمع البربري خلال العهود القرطاجية الوندالية والبيزنطية هو أنّ الشخصية البربرية كانت مقاومة ومتمردة، ولكنها كانت كذلك تقبلية تبدي التعاون ثم تنقضه، تناور وتتأمر بدليل عدد

¹ - م س، سليمان عشراتي، ص: 73

² - مبارك عبد الرحمن الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989. ص: 81

الانتفاضات من جهة وعدم قدرتها على القبول بأية صيغة حكم سواء كانت وندالية أو بزنطية أو حتى عربية إسلامية من جهة أخرى..¹

إنّ هذا النص يشير إلى الطبيعة التحررية والنزعة الثورية للشخصية البربرية عامة والجزائرية على وجه الخصوص، لكننا إذا تتبعنا هذه المصطلحات التي يوظفها الكاتب، لوجدنا كلمتي مقاومة ومُتمردة، وهما كلمتان مكملتان لبعضهما، فالمقاومة دليل على عدم تكافئ القوى المتصارعة، وبالتالي فحتى وإن خمدت هذه المقاومة، فسرعان ما يتمرد القوم على السلطة المهيمنة لتتشعل فتيل المقاومة من جديد، وذلك ما لاحظناه إبان الحقبة الاستدمارية في الجزائر، وعدد المقاومات التي تنهض من حين إلى حين. كما يوظف الكاتب أيضا مفردة ثقلية، فهو بذلك يصف الشخصية بهذه الصفة، التي سنلاحظ أنها أصبحت إحدى السمات المتأصلة في الشخصية البربرية والمغربية والجزائرية على وجه الخصوص، نظرا للظروف التي فرضت على هذه الأمة عبر التاريخ، فكما يوضح الكاتب معنى (الثقلية) أنها تبدي التعاون ثم تنقضه، وما إشارة المؤرخين إلى أنّ البربر قد ارتدوا اثني عشر مرة، إبان الفتوحات الإسلامية، إلا تأكيدا لهذه سمة (الثقلية) المتأصلة في الشخصية البربرية .

لا بد لنا أن نقف قليلا عند هذه الصفة التي تركزت في الشخصية البربرية عبر تاريخ تواجدها على هذه الأرض، وكذا تأصلها في الشخصية الجزائرية على وجه الخصوص، فعندما يقول الكاتب بأنها شخصية ثقلية تبدي التعاون ثم تنقضه، ففي هذا دلالة على رفض مبدئي لمثل هذا التعاون، وقيام هذا التعاون كان على أساس فرض لسياسة ما من طرف الغالب على المغلوب، ولهذا دأبت هذه الشخصية على اتخاذ شكل التعاون كاستراتيجية للتعایش مع هذا القاهر المتسلط، لتتنقض عليه في الفترة المناسبة، وتبعا لهذه الظروف والتجارب التي عاشتها هذه الأمة على مرّ التاريخ تركزت سمة الثقلية في هذه الشخصية، ومنها تتبثق السمات الأخرى التي أشار إليها الكاتب والمتمثلة في المناورة والتأمر. ولتأكيد ذلك وتوضيحه أيضا يقول الوناس: "...الشخصية البربرية متوجسة بطبعها من الآخر وخاصة إذا كان قادما من البحر، فقد تعاون ماسينيوس مع روما وساعدها على الإطاحة بقرطاج وتهيئتها لتقبل الاحتلال الروماني

¹ - م س، المنصف وناس، ص: 50

اعتمادا على أسلوب التخریب والانتفاض، ولكنه مع ذلك ظل متوجسا من روما وخائفا منها. وكذلك فعل أحد أحفاده يوغرطة الذي ظل يرشي روما خشية منها إلى حد وفاته¹.

بهذا يشير الوناس إلى هذه التجارب المريرة عبر التاريخ، والتي جعلت من هذه الشخصية متوجسة من الآخر، مما ركز فيها سمة التقلبية بالمعنى المشار إليه.

إنّ الحديث عن سمات الشخصية المغاربية عموما والجزائرية على وجه الخصوص يحيلنا إلى الحديث عن ملامح هوية هذه الجماعة التي تشكلت بعد إتمام الفتوحات واستقرار الوضع بها وحصول هذه المثاقفة ما بين ثقافة البربر والثقافة العربية الإسلامية الوافدة، بحيث انصهرتا هاتين الثقافتين في بوتقة واحدة لتنتج ثقافة مغاربية تتميز بخصوصيتها، كما كان الحال في الأندلس الذي أنتج شخصية جديدة لا هي بالعربية القحة ولا هي بالبربرية ولا هي بالأعجمية، بل شخصية أندلسية جديدة. كذلك كان الحال في المغرب العربي، بحيث أخذت هذه الشخصية المغربية من الثقافة العربية ما أخذت ومن الثقافة الأمازيغية ما أخذت لتنتج شخصية جديدة. وفي هذا يقول بن عبد الله محمد في حديثه عن الشخصية المغاربية: "من اللافت للانتباه أن هذا النموذج يبدو في مجمله مطابقا لنموذج "الشخصية القاعدية العربية" (...) إذ نجد ما لا يقل عن عشرة خصائص هي نفسها منسوبة إلى الشخصية العربية"²، وهو ما يؤكد أيضا أحمد بن نعمان في مؤلفه "سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية" بقوله: (يتميز المجتمع الجزائري بعدة سمات مستتبطة أغلبها من انتماء هذا المجتمع إلى الكيان العربي الإسلامي. ورغم تعددها وتنوعها فقد أحصى الدكتور أحمد ابن نعمان في كتابه "سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية" أربع وأربعون سمة تشترك فيها الشخصية الجزائرية مع الشخصية العربية)³.

¹ - م س، المنصف وناس، ص: 51

² - بن عبد الله محمد، سيكوباتولوجيا الشخصية المغاربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

2010، ص: 30

³ أنظر : نقلا عن، فائزة خلف، خصوصية الإشهار التلفزيوني الجزائري في ظل الانفتاح الاقتصادي دراسة تحليلية سيميولوجية لبنية الرسالة الإشهارية، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة، إشراف: أ. د. نصر الدين لعياضي، كلية العلوم السياسية والإعلام- قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر-، 2004-2005، ص: 158.

وإذ نورد هذين الشاهدين لندلل على مدى تأثير الثقافة العربية الإسلامية في المغرب عامة والجزائر على الخصوص، وكذا على ذوبان جميع عناصر المجتمع في بوتقة واحدة، ولتوضيح ذلك نجد الهرماسي يصف هذه الظاهرة بقوله: "اعتمادا على الاختلاط والتزاوج ونشر العربية والإسلام انصهر البربر مع القادمين الجدد، وأصبحوا جزءا من المجتمع العربي الإسلامي، وإذا كانت بعض الجزر قد بقيت معزولة في الجبال أو على أبواب الصحراء، وبالتالي كانت في منأى عن الانخراط في مسيرة أسلمة المغرب وتعريبه، فإن فضل الهلاليين كان أكبر من أن يوصف، وكان تأثيرهم في بلدان المغرب حدثا لم تمحه القرون، ذلك أن الهلاليين لم يكونوا جندا للفتح ولا رسلا لتولي الإمارة، ولا هيئات تعليمية أو دعاة لنشر الدين، بل قدموا بعائلاتهم وأبنائهم وأنعامهم ليستوطنوا المغرب بدون عودة، وسرعان ما اختلطوا بالبربر في أماكن وجودهم الوعرة والبعيدة، وشاركوهم شطف العيش وقسوة الطبيعة والمناخ، فارتاحت لهم نفوس البربر، وانفتحوا عليهم، فبنوا فيهم حيوية عربية تواصلت وتسارعت بقدر تعاطف البربر معهم واستعدادهم للحوار والتفاعل مع العادات والتقاليد الوافدة مع عرب الصعيد، وهو ما ساعد على انصهار المجموعتين في بوتقة ثقافية وحضارية واحدة"¹.

إن خير دليل على ما ذهب إليه الهرماسي هو انتشار قصص السيرة الهلالية في الثقافة الشعبية والتي ترسخت عبر القرون وحافظت عليها الذاكرة الجماعية للأمة الجزائرية. وتأكيدا لهذا الاندماج التام نورد نصا للدكتور عشارتي الذي يقول: "إذ أن دواعي المساكنة والتآخي التي رسخها الإسلام بين العرب والبربر في هذه الديار كانت من العمق بحيث غطت على الأنساب، فغمر بعضها بعضا، بتعرب البربر وتبربر العرب، وهذه حقيقة واقعة لا مرأى فيها"².

وبذلك يمكننا أن نعود للمقتبس السابق لنقول لا عجب أن تكون الشخصية البربرية قد استمدت بعض السمات من الشخصية العربية وتبنتها لتصبح من بين سمات الشخصية المغاربية والجزائرية الأصيلة.

¹ محمد صالح الهرماسي، مقارنة في إشكالية الهوية المغرب العربي المعاصر، دمشق، دار

الفكر، 2001، ص: 66-67

² - م س، سليمان عشارتي، ص: 202-203

ولمواصلة رصد ملامح الهوية الجزائرية وما انعكس منها على شخصية الأفراد نجد بن عبد الله محمد يشير إلى سمتان أساسيتان ومركزيتان في سلوك الجزائري بشكل عام بقوله: "فمن خلال الحياء والشرف تتحدد نظرة كل مغربي إلى العالم (...)" وتجعل سلوكه الفردي منسجما تماما مع المطلب الجماعي، وبالتالي فهو حينما يبدي استحياء من الغير يسعى في الغالب إلى تجنب لوم الجماعة¹. بهذا نقول بأن الحياء سمة أساسية وجوهرية في شخصية الجزائري، وتعبير الكاتب في نهاية المقتبس بأنه يسعى إلى مثل هذا السلوك لتجنب لوم الجماعة، ما هو إلا مؤشرا على تمكن هذه السمة في اللاوعي الجمعي للأمة، وحرصها الشديد عليها، كما نجد الكاتب يؤكد أيضا على هذه السمة في موضع آخر بقوله: "ولعل أهم هذه السمات التي يبرزها هذا النموذج هي سمة الإحساس بالحياء"².

ومن بين السمات المرتبطة بالشخصية الجزائرية الذي يذكرها الكاتب نجده يشير إلى مجموعة من صفات الشخصية العربية والتي تنطبق على الشخصية المغاربية عامة والجزائرية على وجه الخصوص نظرا للظروف التي شرحناها سابقا ومن بين هذه السمات نجده يقول: "فالأستاذ عمار (ammar.s.1964) والأستاذ عزم (Al.Azm.SJ.1928)، مثلا يعتبران أن "الفحلوي" هو المكون الأساسي للشخصية القاعدية العربية ويذكران أن "الفحلوي" هو شخص سريع التكيف يستوعب كل جديد بحذر نسبي، وهو مستعد دائما لإبداء وفاق سطحي وتودد سريع..."³، ويواصل تحليله إلى أن يركز هذه السمة الأخيرة في الشخصية المغاربية بقوله: "...حتى صار التودد⁴ (the ingratiation) كما يقول كردينار (kardiner) سمة بارزة من سمات الشخصية القاعدية المغاربية"⁵.

ولكن في مقابل ذلك، فبالرغم من بروز بعض سمات الشخصية العربية وتمكنها في الشخصية الجزائرية، إلا أن هذه الأخيرة تتفرد

¹ - م س، بن عبد الله محمد، ص: 59

² - م ن، ص: 30

³ - م ن، ص: 30

² - م ن، ص: 32

* - التودد: التلطف له - لطف: تودد، تحبب، استمال: ingra'taite

بسمات أخرى تميزها عن الشخصية العربية، وفي هذا الشأن يعدد بن عبد الله محمد أهم هذه السمات التي تميز الشخصية الجزائرية والمتمثلة في "الصراحة، الانطواء على الذات، العمل في صمت، الاندفاع، النرفزة والانفعال، الحساسية وعدم تقبل النقد، التعصب والتشبث بالرأي والمبدأ، الاعتاض من دروس الماضي، الاعتماد على النفس، نشد الكمال والحلول الجذرية"¹.

إنها مجموعة من السمات التي انطبعت بها الشخصية الجزائرية، والتي يبدو بعضها إيجابيا كالصراحة والاعتاض من دروس الماضي والاعتماد على النفس وغيرها، في مقابل سمات أخرى قد تبدو سلبية، لكننا هنا ونحن في مقام رصد هذه السمات الايجابية منها والسلبية بحسب ما أحصاه الكاتب، لا يسعنا إلا أن نقول بأن الشخصية الجزائرية هي محصلة تفاعل هذه القوى فيما بينها، وقد تبدو هذه السمات أقرب إلى صفات مطلقة يوكلها الكاتب للشخصية الجزائرية، ذلك ما نلمسه أيضا عند عبد الرحمان الملي قائلًا: "وأما أخلاق البربري مطلقا فإنه فلاح مقيم، عامل كثار، تاجر حاذق، حربي شجاع، وقد يكون لصا متمردا، حار ينتقم ممن أغضبه بأكثر مما يستحق، حرّ متطرف في الحرية إلى درجة أنه يكره الرئاسة عليه وينتقز منها إلى أن تسنح له الفرصة لهدم تلك الرئاسة وتخريب سلطتها"².

بهذا نلمس توظيف هذه السمات المطلقة في النصين، وهذا الإطلاق نستوحي منه نوعا من التطرف الذي يلزم الشخصية الجزائرية في الاتجاهين السالب والموجب وإن كان الملي يوظف المصطلح صراحة بقوله (حر متطرف في الحرية).

إنّ مقارنة السمات الواردة في النصين ببعضها البعض قد تعكس لنا توافق النصين حول أهم سمات هذه الشخصية بالرغم من اختلاف المفردات والمصطلحات، فعندما نجد بن عبد الله محمد يشير إلى سمة الصراحة فهذه السمة قد تتوافق مع ما ذهب إليه الملي من أن هذه الشخصية (حربي شجاع) و (لصّ متمرد)، فقول الصراحة يجنب عنه الكثير عندما يكون سببا في غضب القوم أو يجلب الهلاك لصاحبه، لذا نرى بأن هذه السمات متوافقة إلى حد ما، والشجاعة هنا أيضا متوافقة

¹ - م س، بن عبد الله محمد، ص: 33-34

² - م س، مبارك بن عبد الرحمان الملي، ص: 95

مع طبيعة اللص المتمرد، لأن الجبان قد يكون لصا لكنه متخفيا، كما أننا نجد سمات أخرى في النص الأول مثل الاندفاع والنرفزة والانفعال والتي تتوافق أيضا مع ما جاء في النص الثاني من سمات مثل (حار ينتقم ممن أغضبه بأكثر مما يستحق)، فهذا الانتقام الشديد لا يتأسس إلا على أرضية الاندفاع والنرفزة والانفعال، كما نجد سمات عدم تقبل النقد والتعصب والتشبث بالرأي والمبدأ، ونشدانه الحلول الجذرية لا تتضارب مع طبيعة هذه الشخصية الجزائرية التي قال فيها الميلي بأنها حرة متطرفة في الحرية إلى درجة أنها تكره الرئاسة عليها وتتقزز منها إلى أن تسنح لها الفرصة لهدم تلك الرئاسة، كما نجد أن سمة الاعتماد على النفس تتوافق أيضا مع سمات: فلاح مقيم، عامل كئاز، تاجر حاذق، بحيث لا ينجح في هذه المهن إلا من كان معتمدا على نفسه، حازما، يقبل بذل الجهد.

بهذا يمكننا أن نقول عموما بأن هذه السمات الواردة في النصين وإن كان التعبير عنها بأشكال مختلفة إلا أنها تصف جوهر واحد.

ويضيف الكاتب جملة أخرى من الصفات المهمة التي تتسم بها الشخصية الجزائرية بقوله: "...ومن هذه السمات التي تظهر في هذه الدراسة وتدل على هذا المعنى نجد التعاون، عزة النفس والأنفة، التدين، المحافظة على السمعة والاستماتة في الدفاع عن الشرف والتمسك بالأصول"¹.

إن هذه السمات متأصلة ومتجذرة في الشخصية الجزائرية، فمبدأ التعاون يتفق حوله أفراد الشعب الجزائري ونلمس ملامحه في الأفراح والأفراح وقد يكون الطابع الاجتماعي للنظام السياسي في الجزائر ما هو إلا تعبيراً عن ذلك.

أما عزة النفس التي يسم بها الكاتب الشخصية الجزائرية فقد تتبدى في أقوى صورها عندما تخذش الأمة في كرامتها، ذلك ما لاحضناه من خلال الهبة القوية للشعب الجزائري أثناء الأحداث المصرية الجزائرية إثر مقابلة كرة القدم الشهيرة، بعدما أن أهان الإعلام المصري رموز الجزائريين وعلى رأسهم الشهداء، وفي هذا يقول إليكس: "ويأخذ الشعور بالقيمة أهمية على مستوى الجماعة أو الثقافة كما هو الحال على المستوى الفردي، ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال العمليات

¹ - م س، بن عبد الله محمد، ص: 34

الدفاعية التي تعتمد عليها الجماعة عندما تتعرض القيمة الجمعية أو الثقافية للحظر والتهديد. ونلاحظ في هذا السياق أن التبخيس يجعل الجماعات ذات طابع عدواني¹.

وعليه يمكننا أن نقول بأن رد فعل الجزائريين كان منطقيا وطبيعيا (في سياق تعرض الآخر لمقدسات الجماعة)، وهو في نفس الوقت دلالة على سمة عزة النفس التي أكلها الكاتب للشخصية الجزائرية، ويشير أيضا إلى سمة الأنفة التي تتسم بها هذه الشخصية، وهذه السمة يذكرها في مقام آخر أيضا بقوله: "البعد الآخر الذي يبرز كعنصر أساسي من عناصر الشخص المغاربي هو التطلع إلى تهذيب النفس والرفي بها إلى مرتبة تجعلها تتسم بالخلق القويم وتحظى بالاحترام والتقدير.

هذا الاحترام يرمز إليه في المنطقة المغاربية بمفهوم "النيف" (...) فالنيف الذي هو كناية عن الجسم وعن الوجه بالتحديد يجسد الشخص في بعده الخلقي ويرمز إلى شرف الفرد والعائلة التي ينتمي إليها والقبيلة التي ينحدر منها². بهذا تبرز القيمة الدلالية والشحنة النفسية التي تعبر عنهما كلمة "النيف" عند المغاربة عامة والجزائريين بشكل خاص بحسب وجهة نظر الكاتب، غير أننا نجد د.عشراتي يعطي تحليلا مغايرا لهذا المفهوم، ويتوجه إليه من وجهة نظر مختلفة بقوله: "من هنا كانت صفة الأنفة صفة توحش أي بداوة، أو خلقا دالا على نقص في مدنية الفرد أو الجماعة، فالأمة الأخذة بحظ من البداوة والتحرر من قيود المكان -بواسطة الترحال- والمتجاوزة لوطأة الزمان- من خلال تجديد حركتها عبر المواسم، أمة يغلب على طبعها خلق الأنفة بخلاف الأمة الألسق بالمدنية، فتلك تتميز بالانبساط في التعامل وبقابلية الاحتمال والتكيف.

فكثير مما تعتبره الذهنية البدوية امتهانا لا يقابل إلا برفع السيف، قد تتكيف معه الذهنية المدنية وتحمله ولا ترى فيه غضاضة، وذلك لتعودها على بناء علاقات التعامل والتنازل والتغاضي والبراغماتية³. بهذا الشكل نجد الدكتور عشراتي يلحق هذه السمة بسلوك البداوة أكثر منها إلى سلوك المدنية.

¹ إريكس ميكشيلي، الهوية، تر: د.علي وطفة، دمشق، دارالوسيم للخدمات الطباعة، ط1،

سنة 1993. ص: 85

² - م س، بن عبد الله محمد، ص: 58-59

³ - م س، سليمان عشراتي، ص: 259-260

قد يبدو في هذا نوع من التضارب بين ما جاء في المقتبس السابق وما صرح به د. عشراتي، إلا أننا نقول بأن سمة الأنفة تحيل إلى الخلق الكريم المتأصل في الشخصية الجزائرية، ولكن طفوها على السطح وسيادتها على باقي السمات الأخرى بالشكل التي تصبح فيه ظاهرة مرصودة بما يصاحبها من عنف غير مبرر قد تكون فعلا سلوكا بدويا لم يرتقي بعد إلى منزلة التمدن والتحضر.

وبواصل عشراتي رصد هذه السمة المميزة للشخصية الجزائرية بقوله: "لاشك أننا ركزنا على الخصيصة التي قدرنا أنها من أهم ما يميز النفسية الجماعية الجزائرية، وهي خصيصة الأنفة والنزوع إلى الانتفاض والرد الانفعالي، وأبرزنا ذلك بكون المسار الشاق الذي قطعه تاريخية هذا الشعب منذ القديم قد كرس في نفسية الجزائري استجابة الحذر، وقوى نوازع الحمية وروح التصدي والثأر للكرامة. وإنها لسجايا تكاد تكون غريزية تشترك فيها البشرية كافة، إلا أن ما يضي عليها تميزها بالنسبة للجزائريين، الصبغة الفورية والآلية -الغريزية- التي تلازم ردودهم حيال كل مطاولة تستشعرهم المهانة، وما ذلك إلا لتعميق الشرط الانفعالي الفطري فيهم، إذ ظلوا بدوا أو شبه بدو عبر الأمد"¹.

بهذا يجعل عشراتي من سمة الأنفة سمة مميزة للشخصية الجزائرية، ويحاول أيضا أن يعطي لهذه السمة مرجعية تاريخية ساهمت في تركيزها في سلوك الجزائري، فهذا المسار التاريخي الشاق الذي عاشته الأمة الجزائرية ساهم بقدر وافر في تركيز وبروز هذه السمة على الشخصية الجزائرية، لكنه رغم محاولته إيجاد أسباب تؤسس لهذا السلوك المرتبط بهذه الشخصية، إلا أنه لا ينفي علاقة هذه السمة بالسلوك البدوي بقوله: "لكن ألا تخفي تلك الانفعالية التي تبدو أحيانا خرقاء ومجانية والتي تلازم سلوكنا لسبب ولغير سبب، قصورا مدنيا يهبط بتصرفات الإنسان إلى مستوى من الصبائية والطيش"².

وبالاضافة إلى ذلك نجد عشراتي يلتفت إلى بعض السمات الجديدة التي طرأت على الشخصية الجزائرية في الوقت الراهن، وأصبحنا نلمسها في واقعنا اليومي، سواء كانت هذه السمات جديدة طارئة على الشخصية الجزائرية، أو تحولت عما كانت عليه، فما هو يرصد لنا

¹ - م ن، ص: 261

² - م س، سليمان عشراتي، ص: 262

جانبا من جوانب الشخصية الجزائرية، إنها تلك العلاقة الخاصة ما بين الجزائري وما بين الدولة، من خلال مفهوم البايلك، وفي هذا يقول: "لا ريب أن مفهوم الدولة الملتصق بالبايلك قد ورثته الذاكرة الجزائرية عن العهد التركي، فالى أمس القريب فقط، كانت مؤسسات الدولة تتسمى عندنا بالبايلك، وكان البايلك يحيل في الشعور الفردي والجماعي على تلك المساحة من المرافق التابعة للدولة والتي تجد من الأهالي حرمتها الوطيدة حتى من غير أن تقوم عليها خفارة.

فالبايلك كانت تعني الخوف، إذ أن سلطته كانت تستشعر على الصعيد النفسي الفردي والجماعي من خلال ذلك الإحساس بالحضور المعنوي وبالرقابة الذاتية التي أقامت في نفوس المواطنين حاجزا يصون المصالح العامة ويلحق العقاب عن أي مس بتلك المصالح مهما كان الطرف"¹.

بهذا النص يحاول عشارتي أن يؤسس لبداية تشكل هذا المفهوم الخطير الذي فشا في الأوساط الاجتماعية منذ فترة، هذا المفهوم الذي يعكس طبيعة العلاقة الراسخة في ذهنية أوساط وشرائح واسعة في المجتمع الجزائري، والذي من خلاله تحدد هذه الشرائح طبيعة تعاطيها مع أجهزة الدولة.

إنّ عشارتي يضعنا ها هنا أمام ظاهرة خطيرة تكاد ترسم كسمة بارزة في الشخصية الجزائرية، والتي يجب التعاطي معها بجدية، لما يكتنزه مفهوم البايلك أو ما يكافؤه من شحنات سلبية وعدائية اتجاه الدولة، بحيث يقول عشارتي: "فتقافة البايلك القهرية كرسست فينا حسّ الدولة، لكنها إلى ذلك قرنت صورة الدولة بالبطش والخوف والعقاب. والغريب أن نرث بعد الاستقلال هذه الصورة الغريبة للدولة، ونرث معها كل ما يلابسها من مشاعر منفرة، تعمقت في نفوسنا إبان العهد الاستعماري الفرنسي"².

إن هذا المفهوم والذي يكاد يصبح إحدى سمات الشخصية الجزائرية والذي تركّز عبر قرون مضت سواء في فترة الحكم العثماني (الأتراك) أو الفترة الاستعمارية، قد يكون له انعكاسات خطيرة على مستوى البناء الاجتماعي، وما يفرزه من سلوكيات فردية وجماعية غير سوية، ولكنها سلوكيات وأفعال وردود أفعال تأخذ الطابع المنهجي، وفي هذا

¹ - م ن، ص: 217-218

² - م س، سليمان عشارتي، ص: 218

يقول عشارتي: "ومن الطبيعي أن تسلك النفوس للإعراب عن مشاعر كراهية الدولة والسلطان تلك الطرق الملتوية تفاديا للعقاب والزجر البالغين، الأمر الذي نمى فينا روح قدسية خيانة الدولة، ومشروعية انتهاكها من خلال ضرب مصالحها"¹.

إن هذا التعبير الذي يدلي به د. عشارتي في محاولة منه لوصف هذا السلوك الذي ارتبط بحسبه بمفهوم البايك، نخشى في حقيقة الأمر أن يكون استمرارا لما عبرنا عنه سابقا "بالشخصية الانقلابية" التي تمثل إحدى سمات الشخصية البربرية بحسب تعبير محمد بن عبد الله من أن هذه الشخصية الانقلابية (تبدي التعاون ثم تتقضه، تتاور وتتآمر...).

لقد كانت هذه السمة مبررة لنزوع هذه الشخصية نحو التحرر إبان العهود القرطاجية والوندالية والبيزنطية، لكن بروز هذه السمة المقتعة بمفهوم البايك يدل على وجود أزمة في العلاقة ما بين المواطن والسلطة، تلك الأزمة التي استدعت هذه السمة للبروز على مستوى الشخصية الجزائرية.

بهذا نكون قد حاولنا تسليط الضوء حول بعض السمات التي تسهم في تشكيل الذهنية الجزائرية، وتحدد السلوك العام لأبناء المنطقة.

مكتبة البحث :

- 01- عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
- 02 - المنصف وناس، الشخصية التونسية محاولة في فهم الشخصية العربية، تونس، الدار المتوسطية للنشر، 2011 .
- 03 - سليمان عشارتي، الشخصية الجزائرية الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007 .
- 04 - مبارك بن عبد الرحمان الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989.
- 05 - بن عبد الله محمد، سيكوباتولوجيا الشخصية المغاربية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
- 06- محمد صالح الهرماسي، مقارنة في إشكالية الهوية المغرب العربي المعاصر، دمشق، دار الفكر، 2001.

¹ - م ن، ص: 218

- 07- اليكس ميكشيللي، الهوية، تر: د.علي وطفة، دمشق، دارالوسيم للخدمات
الطباعية، ط1، سنة1993.
- 08- لطفي عيسى، مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن السابع
عشر، تونس، سداس للنشر، 1994.
- 09- بذاك شابحة، الممارسات السحرية للمجتمع الأمازيغي، الجزائر، منشورات
دار السعادة، دت.
- 10- فايزة يخلف، خصوصية الإشهار التلفزيوني الجزائري في ظل الانفتاح
الاقتصادي دراسة تحليلية سيميولوجية لبنية الرسالة الإشهارية، رسالة لنيل شهادة
دكتوراه دولة، إشراف: أ. د. نصر الدين لعياضي، كلية العلوم السياسية والإعلام-
قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2004-2005.